

اقتفاء الأثر

لبلوغ سبيل سادات البشر

أبو فهيمة عبد الرحمن عياد

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)، أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ فهذه وريقات يسيرات فيها النصيح والذكرى لإخواني بلزوم سبيل الهدى، واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام -رضي الله عنهم-؛ فيها النداء باقتفاء اثر الأسلاف الصالحين من خير قرون هذه الأمة الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية بنص حديث رسول الله الذي (مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم: 3-4)؛ فقد قال -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عنه صحابيه الجليل عمران بن حصين -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»¹. وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «تركتم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»². قال الشيخ العلامة الفوزان حفظه الله تعالى: «(الْبَيْضَاءُ) هي الجادة، و(المحجة) هي الجادة، وهي طريقة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه وسلف الأمة، هذه هي المحجة والطريق الذي يجب على الخلف أن يسلكوه وأن يسيروا معه اقتداءً بالقدوة العظمى رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبأصحابه وبأئمة المسلمين، هذه

¹ منفق عليه.

² رواه أحمد وابن ماجه.

هي المَحَجَّة، لا تتخلف عن المَحَجَّة، ويُغني عن هذا قوله تعالى (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)، فصراطُ الله واحد، وأما ما عداه فهي طرقٌ كثيرة، وعلى كُلِّ طريقٍ منها شيطان كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدعو الناس إليه؛ فمن ترك الصِّراطَ المستقيم وقع في هذه الطُّرقات المُلْتَقَّة الكثيرة، وأخذته الشياطين، واجتالته الشياطين، ولهذا ندعو الله في سورة الفاتحة في كل صلاة، وهي ركنٌ من أركان [الصلاة] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)، الذين أنعم الله عليهم هم الصديقون والشهداء والصالحون (وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) والمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم اليهود وأمثالهم من كل عالم لا يعمل بعلمه، ولا يبينه للناس فإنه على طريقة اليهود المغضوب عليهم، لأنهم عندهم علم ولم يعملوا به، وَلَا الضَّالِّينَ وهم النصارى الذين يعبدون الله على جهلٍ وضلال على غير دليل وعلى غير حق، ويدخل في هذا المتصوفة الضلال، ويدخل فيه المبتدعة، كلهم يدخلون في الضلال- نسأل الله العافية³»، والأدلة من الكتاب والسنة كثيرة على وجوب اتباع طريق الهدى واجتناب طرق الغي والضلال منها ما رواه ابن أبي عاصم عن جابر وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما-، واللفظ لجابر قال: «كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فخط خطا هكذا أمامه فقال: «هَذَا سَبِيلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وخط خطا عن يمينه وخط خطا عن شماله و قال: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ»، ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ذُلُّكُمْ وَصَأْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)⁴؛ ففي اتباع سبيلهم الهدى والنور، وفي اجتناب طريقهم وطريقتهم الوقوع في سبل الردى والفجور. قال الله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي النَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح 2)، وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة 100)، فرضا الله تبارك وتعالى على العبد منوط بسلوك طريق من رضي الله عنهم وأرضاهم، والتابع له حكم المتبوع. قال الشيخ العلامة السعدي -رحمه الله تعالى- عند تفسيره لآية التوبة: «السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) : (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ). (و) من

³ الموقع الرسمي لمعالي الشيخ الدكتور الفوزان -حفظه الله تعالى-: <http://alfawzan.af.org.sa/node/15554>

⁴ رواه ابن أبي عاصم في «السنة»، وحسنه العلامة الألباني في «المشكاة».

(الأنصار) : (الَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ). (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) : بالاعتقادات والأقوال والأعمال؛ فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم وحصل لهم نهاية المدح وأفضل الكرامات من الله. (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) : ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة⁵؛ فالنجاه بالنجاء بالاتباع والافتقار؛ فالآخر تبع للأول، وأول هذه الأمة أئمتها من سادات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين زكاهم بلسان القال والحال، قال ابن القيم -رحمه الله- في إلام الموقعين: «وَلَمَّا كَانَ التَّلَقَّى عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَى نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ بِوَاسِطَةٍ، وَنَوْعٌ بغيرِ وَاسِطَةٍ، وَكَانَ التَّلَقَّى بِلا وَاسِطَةٍ حَظَّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَازُوا قِصَبَاتِ السَّبَاقِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْأَمَدِ فَلَا طَمَعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي اللَّحَاقِ، وَلَكِنَّ الْمُبْرِزَ مَنْ اتَّبَعَ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، وَاقْتَفَى مِنْهَا جَهْمَ الْقَوِيمِ وَالْمُتَخَلِّفَ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَذَلِكَ الْمُنْقَطِعُ النَّائِيهِ فِي بَيْدَاءِ الْمَهَالِكِ وَالضَّلَالِ، فَأَيُّ خِصْلَةٍ خَيْرٌ لَمْ يَسْبِقُوا إِلَيْهَا؟ وَأَيُّ خُطَّةٍ رُشِدٌ لَمْ يُسْتَوْلُوا عَلَيْهَا؟ تَاللَّهِ لَقَدْ وَرَدُوا رَأْسَ الْمَاءِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ عَذْبًا صَافِيًا زُلَالًا، وَأَيَّدُوا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَدْعُوا لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقَالًا، فَحَوَّاهُ الْقُلُوبَ بِعَدْلِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، وَالْفَرَى بِالْجِهَادِ بِالسِّيفِ وَالسِّنَانِ، وَأَلْفُوا إِلَى التَّابِعِينَ مَا تَلَفَّوهُ مِنْ مُشْكَاتِ النُّبُوَّةِ خَالِصًا صَافِيًا، وَكَانَ سَنَدُهُمْ فِيهِ عَنْ نَبِيِّهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَنَدًا صَاحِبًا عَالِيًا، وَقَالُوا: هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إِلَيْنَا وَقَدْ عَهَدْنَا إِلَيْكُمْ، وَهَذِهِ وَصِيَّتُهُ رَبَّنَا وَفَرَضُهُ عَلَيْنَا وَهِيَ وَصِيَّتُهُ وَفَرَضُهُ عَلَيْنَا، فَجَرَى التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى مِنْهَاجِهِمُ الْقَوِيمِ، وَاقْتَفُوا عَلَى آثَارِهِمْ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ سَلَكَ تَابِعُوا التَّابِعِينَ هَذَا الْمَسْلُوكَ الرَّشِيدَ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ" [الحج: 24]، وَكَانُوا بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَبْلَهُمْ كَمَا قَالَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ" [الواقعة: 13] "وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ" [الواقعة: 14] ثُمَّ جَاءَتِ الْأَئِمَّةُ مِنَ الْقُرْنِ الرَّابِعِ الْمُفْضَلِ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَسَلَكُوا عَلَى آثَارِهِمْ اقْتِصَاصًا، وَاقْتَبَسُوا هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مِشْكَاتِهِمْ اقْتِبَاسًا، وَكَانَ دِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَجَلٌ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ، مِنْ أَنْ يُعَدِّمُوا عَلَيْهِ رَأْيًا أَوْ مَعْقُولًا أَوْ تَقْلِيدًا أَوْ قِيَاسًا، فَطَارَ لَهُمُ التَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، ثُمَّ سَارَ عَلَى آثَارِهِمُ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ، وَدَرَجَ عَلَى مِنْهَاجِهِمُ الْمُؤَفَّقُونَ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ، زَاهِدِينَ فِي التَّعَصُّبِ لِلرَّجَالِ، وَاقْفِينَ مَعَ الْحُجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، يَسِيرُونَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَ سَارَتْ رِكَائِبُهُ، وَيَسْتَقِيلُونَ مَعَ الصَّوَابِ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهُ، إِذَا بَدَأَ لَهُمُ الدَّلِيلُ بِأَخْذِهِ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَاقَاتٍ وَوُحْدَانًا، وَإِذَا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ إِلَى أَمْرٍ انْتَدَبُوا إِلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا قَالَ بُرْهَانًا، وَنُصُوصُهُ أَجَلٌ فِي صُدُورِهِمْ وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُعَدِّمُوا عَلَيْهَا قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ يُعَارِضُوهَا بِرَأْيٍ أَوْ قِيَاسٍ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،

⁵ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، للعلامة السعدي -رحمه الله تعالى-.

وان عبد حبشي؛ فانه من يعيش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فانها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»⁶؛ فالضلالة تقابل بالهدى، والهدى في أتباع المهتدين الراشدين؛ قال الشيخ الدكتور محمد عمر بزمول حفظه الله: «وقوله في الحديث **«فعليه بسنتي»** أي: فليزِم سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي؛ فالإضافة إليهم إما لعلهم بها أو لاستنباطهم واختيارهم إياها، وقد كانت طريقتهم هي نفس طريقتهم؛ فإنهم أشد الناس حرصا عليها وعملا بها في كل شيء. وعلى كل حال، كانوا يتوقون مخالفتها في أصغر الأمور فضلا عن أكبرها. وكانوا إذا أعوزهم الدليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عملوا بما يظهر لهم من الرأي بعد الفحص والبحث والتشاور والتدبر، وهذا الرأي منهم أولى من رأي غيرهم عند عدم الدليل⁷». قال الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله تعالى- في «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» معلقا على حديث ابن مسعود أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: **«خير النَّاسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»** «الفائدة الثالثة: في هذا الحديث: فضلُ السلف على الخلف، وأنَّ السلف بما فيهم القرون المفضَّلة أفضل من الخلف، في العلم، وفي العمل، وفي السَّمْت والأخلاق، ففي هذا ردُّ على من يقول: "طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم"، بل: "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم من طريقة الخلف"، لأنَّ الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أثنى عليهم وذمَّ من يأتي بعدهم، وإنَّما ينجو من جاء بعدهم بإتباعه لهم واقتدائه بهم، فلا يسلم من الخلف إلا من تمسك بهدي السلف وسار على نهجهم، أما من خالفهم فإنه يهلك، فيكون: السلف أعلم وأسلم وأحكم»⁸؛ فهو منهج الأنبياء والمرسلين الذين اقتفى آثارهم صحابة نبينا الأمين -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهم وأرضاهم؛ الذي بعثه ربه رحمة للعالمين، معلما وداعيا أصحابه وأمتهم أجمعين إلى سنن هدى الأولين ليتم به الدين ويقوم به الحجة وينير به المحجة لعموم الناس والمسلمين؛ ولا ريب أن الدعوة إلى طريقته - على طريقته- هي وظيفة علماء ودعاة السنة السلفيين.

قال فضيلة شيخنا الشيخ الوالد عبد الغني بن الحسن عوسات -حفظه الله تعالى ورعا- في مقاله الممتع «كلمة في منهج الدعوة إلى الله»: «وإنَّ على الداعية إلى الإصلاح على علم وبصيرة أن يجعل نصب عينيه جهود الأولين فإنَّها كانت غير قصيرة، وكانت آثارها غزيرة، وعلى رأسهم الأنبياء الذين في نهجهم الحكمة والعقل، والعصمة من الزَّلَل، وكان شعارهم في ذلك **(إِنَّ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي**

⁶ رواه الترمذي وأبو داود.

⁷ «فضل اتباع السنة»، للشيخ محمد بزمول -حفظه الله تعالى-، ص. 15. ورسالة الشيخ -حفظه الله- مترجمة إلى اللغة الفرنسية بقلم كاتب المقال *Le mérite de suivre la Sounna*، ومنشور فصل منها على الأنترنت: <http://kabyliesounna.com/?p=529>

⁸ «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد»، ج2، ص281.

إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود : 88)، وتبعاً لهم الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - فقد كانوا على الإصلاح حريصين وعلى الصلاح ثابتين، ويليهم مَنْ اتَّبَعَهُمْ فِيهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مِنَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ، وَالَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ.

فلا بدَّ إذًا، من منهج سديد وطريق رشيد يَتَّبِعُهُ كُلُّ مَنْ يَرِيدُ الْإِصْلَاحَ لَا يَزِيغُ عَنْهُ وَلَا يَجِدُ، وهو ما كان منضبطاً في ذاته وضابطاً لغيره، ولقد قال الإمام مالك بن أنس - إمام دار الهجرة وإمام عِلْمٍ وهدى - كلمة ذهبيةٌ مُذَكِّرًا المصلحين بأن لا سبيل للصالح والإصلاح إلا إذا كان على سبيل الصُّلَاح، فقال - رحمه الله - : «وما لم يكن يومئذ ديننا لا يكون اليوم ديننا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.»⁹ وعقيب هذه الكلمة القوية قال الإمام محمد البشير الإبراهيمي متعلِّقاً بمبناها ومُعلِّقاً على معناها: «جملةٌ إن لم تكن من كلام النبوة فإنَّ عليها مَسْحَةٌ من النبوة، ولمحةٌ من روحها، وممصةٌ من إشراقها؛ والأمةُ المشار إليها في هذه الجملة أمةٌ محمد - صلى الله عليه وسلم -، وصلاح هذه الأمة شيءٌ ضربت به الأمثال، وقدمت عليه البراهين، وقام غائبه مقام العيان، وخلدته بطون التواريخ، واعترف به الموافق والمخالف، ولهجَّ به الراضي والساخط، وسجلته الأرض والسماء، فلو نطقت الأرض لأخبرت أنها لم تشهد - منذ دَحَّحَهَا اللهُ - أمةً أقوم على الحق وأهدى به من أول هذه الأمة، ولم تشهد - منذ دححها الله - مجموعة من بني آدم اتَّحدت سرائرها وظواهرها على الخير مثل أول هذه الأمة، ولم تشهد - منذ دححها الله - قوماً بدأوا في إقامة قانون العدل بأنفسهم، وفي إقامة شريعة الإحسان بغيرهم مثل أول هذه الأمة، ولم تشهد - منذ أنزل الله إليها آدم وعمرها بذريته - مثالا صحيحا للإنسانية الكاملة حتى شهدته في أول هذه الأمة، ولم تشهد أمةٌ وَحَدَّت اللهُ فَاتَّحَدت قواها على الخير قبل هذه الطبقة الأولى من هذه الأمة.»¹⁰

فهو منهجٌ إذًا تَمْتَدُّ أصوله إلى الصدر الأول، وتتبع جذوره مما قرَّره العلماء الربانيون على مدار القرون، لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان، مهما تباعدت الأمصار وتقدمت الأعصار، فكانت قاعدة جامعة ومقالة نافعة: «نقتدي ولا نبتدي، ننتبع ولا نبتدع»، فإنَّ منهج السلف حُجَّةٌ على الخلف، قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : «من كان مُتَأَسِّبًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرًا هَذِهِ الْأُمَّةُ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكْلِفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا؛ قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لُصْحَبَةَ نَبِيِّهِ، وَإِقَامَةَ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»¹¹، ولتأكيد ذلك في أذهان

⁹ رواه عنه ابن الماجشون، كما ذكرها الشاطبي في «الاعتصام».

¹⁰ هذه الكلمات طليعة حديث كان ألقاه الشيخ البشير الإبراهيمي بدار الإذاعة في بغداد واختص به مجلة «الأخوة الإسلامية»، (العدد 22/1 نوفمبر 1952)، ثم نقلته «البصائر»، (العدد 20/5 فيفري 1953) ويمكننا قراءة الحديث كاملاً في «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (93/4 - 95).

¹¹ رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: (1810).

النَّاسِ وتقريره، قال الإمام الأوزاعي -رحمه الله- مقولة مشهورة في تعبيره: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم»¹²،¹³

وقال النبي صلى الله عليه وسلم مثنيا على أولئك القوم ومادحا لتلك الطائفة التي تتبع ولا تبندع؛ التي تتبع سبيل الأولين من الأنصار والمهاجرين، وتقتفي آثار السلف الصالحين، قال عليه الصلاة والسلام: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»**.¹⁴ قالت اللجنة الدائمة برئاسة سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- في جواب سؤال وجه لها هذا نصه: «س: قد اطلعت على حديث شريف أورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه [مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم]؛ وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: «سنفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، والسائل هنا يريد بيان هذه المسألة التي قال فيها الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه أنف الذكر: (فهذه المسألة من أجل المسائل فمن فهمها فهو الفقيه ومن عمل بها فهو المسلم، فنسأل الله الكريم المنان أن يتفضل علينا بفهمها والعمل بها) كما يود إجابته على الأسئلة التالية التي تدور حول الحديث المذكور وهي:

- 1- من هي الفرقة الناجية المشار إليها في الحديث؟
- 2- وهل تدخل الفرق الأخرى غير أهل الحديث؛ كالشيعة، والشافعية، والحنفية، والتيجانية وغيرها في الاثنتين والسبعين فرقة التي نص الرسول الكريم على أنها في النار؟
- 3- وإذا كانت هذه الفرق في النار إلا واحدة فكيف تسمحون لهم بزيارة بيت الله الحرام؟ هل كان الإمام الكبير على خطأ أم قد حدثت عن الجادة المستقيمة؟ «فكان الجواب كالتالي: «أولا: ما ذكره الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في [مختصر السيرة] طرف من حديث صحيح مشهور رواه أصحاب السنن والمسانيد كأبي داود والنسائي والترمذي وغيرهم بألفاظ عدة منه: **«افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا**

¹²الأجري في «الشريعة»: (58/1).

¹³مقالة الشيخ -حفظه الله تعالى- «كلمة في منهج الدعوة إلى الله»، على موقعه

http://aoussat.com/index.php?option=com_k2&view=item&id=127:2015-07-22-13-13-30&Itemid=209&lang=ar وهي مترجمة إلى اللغة الفرنسية بقلم كاتب هذا المقال ومطبوعة في رسالة بعنوان «اتباع السلف الصالح» *Le suivi des pieux prédécesseurs* وهي متوفرة على الأنترنت: <http://markaz-al-jamaa.be/le-suivi-des-pieux-predecesseurs-2>¹⁴ رواه مسلم.

واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، وفي رواية: «على ثلاث وسبعين ملة»، وفي رواية: «قالوا: يا رسول الله، من الفرقة الناجية؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وفي رواية قال: «هي الجماعة، يد الله على الجماعة».

ثانيًا: الفرقة الناجية قد بينها رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- في بعض روايات الحديث المتقدم بصفتها ومميزاتها في جوابه على سؤال أصحابه: من الفرقة الناجية؟ حيث قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وفي رواية أخرى قال: «هي الجماعة يد الله على الجماعة»، فوصفها بأنها هي التي تسير في عقيدتها وقولها وعملها وأخلاقها على ما كان عليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم-، فتنهج نهج الكتاب والسنة في كل ما تأتي وما تذر، وتلتزم طريق جماعة المسلمين وهم الصحابة رضي الله عنهم حيث لم يكن لهم متبوع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فكل من اتبع الكتاب والسنة قولية أو عملية وما أجمعت عليه الأمة ولم تستهوه الظنون الكاذبة والأهواء المضلة والتأويلات الباطلة التي تأبأها اللغة العربية - التي هي لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها نزل القرآن الكريم - وتردها أصول الشريعة الإسلامية، كل من كان كذلك فهو من الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة.

ثالثًا: أما من اتخذ إلهه هواه وعارض الكتاب والسنة الصحيحة برأيه أو رأي إمامه وقول متبوعه حمية له وعصبية، أو تأول نصوص الكتاب والسنة بما تأباه اللغة العربية وترده أصول الشريعة الإسلامية فشد بذلك عن الجماعة فهو من الفرق الثنتين والسبعين التي ذكر الرسول المعصوم محمد -صلى الله عليه وسلم- بأنها جميعها في النار، وإذا فأمارة هذه الفرق التي بها تعرف: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع بلا تأويل يتفق مع لغة القرآن وأصول الشريعة ويعذر به صاحبه فيما أخطأ فيه .

رابعًا: المسألة التي ذكرها إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذكر أنها من أجل المسائل، وأن من فهمها فقد فهم الدين، ومن عمل بها فهو المسلم - هي ما تقدم بيانه في الفقرة الثانية من الإجابة، من تميز الفرقة الناجية بما ميزها به النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأن الفرق الأخرى على خلافها، فمن ميز بين الفرقة الناجية والفرقة الهالكة بما ميز به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفهم الفرق بين الفرق الناجية والهالكة على وفق بيانه فقد فهم الدين وميز بين من يجب أن يلزم جماعتهم ومن يجتنبهم ويفر منهم فراره من الأسد، ومن أخذ نفسه بالعمل بهذا الفهم الصحيح فلزم جماعة الهدى والحق وإمامهم فهو المسلم؛ لأنه ينطبق عليه وصف الفرقة الناجية علمًا وعقيدةً وقولاً وعملاً .

ولا شك أن هذا من أجل المسائل وأعظمها نفعاً وأعمها فائدة، فرحم الله الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رجل البصيرة النافذة والفهم الدقيق لنصوص الدين ومقاصده، حيث نبه على ما يهيم المسلمين في أمر دينهم بالإشارة أحياناً كما هنا، وبالعبارة والبيان أحياناً أخرى كما في كثير من مؤلفاته .

خامساً: لم يجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الألقاب التي اشتهرت بها الطوائف المنتسبة للإسلام سمات تعرف بها الفرق الثنتان والسبعون، ولا عنواً يتمايز به بعضها عن بعض، وإنما جعل أمارتها مفارقة الكتاب والسنة وإجماع الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-، اتباعاً للظن وما تهوى الأنفس، وقولاً على الله بغير علم وعصية لمتبوعهم سوى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعادون في ذلك ويوالون، كما جعل شعاراً للفرقة الناجية اتباع الكتاب والسنة ولزوم جماعة المسلمين، وإيثار ذلك على مداركهم وظنونهم وأهوائهم، فهوهم تبعاً لما جاءت به الشريعة الإسلامية، يوالون في ذلك ويعادون، فمن يتخذ ميزاناً يزن به الطوائف سوى بيان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويعرف به فرقها ليميز الفرقة الناجية من الفرق الهالكة فقد تكلم بغير علم وحكم في الفرق بغير بصيرة فظلم بذلك نفسه، وظلم الطوائف المنتسبة للإسلام، ومن رجع في تمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكة إلى بيانه -صلى الله عليه وسلم- عدل في حكمه وعرف أن جماعات الأمة درجات متفاوتة، فمنهم من هو أحرص على اتباع الشريعة والاستسلام لها وأبعد الناس عن الابتداع في الدين والتحريف في نصوصه، والزيادة فيه أو النقص منه فهؤلاء أسعد الناس بأن يكونوا من الفرقة الناجية، فعلماء الحديث وأئمة الفقه في الكتاب والسنة منهم من هو أهل للاجتهاد يحرص على الشريعة ويسلم لها إلا أنه قد يتأول بعض نصوصها تأويلاً يخطئ فيه فيعذر في خطئه لكونه في موارد الاجتهاد، ومنهم من ينكر بعض نصوص الشريعة، إما لكونه حديث عهد بالإسلام، وإما لأنه نشأ في أطراف البلاد الإسلامية فلم يبلغه ما أنكره، ومنهم من يرتكب معصية أو يبتدع بدعة لا يخرج بها عن حظيرة الإسلام، فهو مؤمن مطيع لله بما فيه من طاعة، مسيء بما ارتكب من معصية وابتدع من البدع فكان في مشيئة الله إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه، قال تعالى **(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)** وقال **(وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)**؛ فهؤلاء وهؤلاء ليسوا بكفار بتأويلهم الخاطئ أو جحدهم ما جحدوا بل يعذرون ويدخلون في عداد الفرقة الناجية وإن كانوا دون الأولى. ومنهم من جحد معلوماً من الدين بالضرورة بعد ما تبين له واتبع هواه بغير هدى من الله أو تأول بعض نصوص الشريعة تأويلاً بعيداً مخالفاً في ذلك من سبقه من جماعة المسلمين، ولما بين لهم الحق وأقيمت عليهم الحجة بالمناظرات وغيرها لم يرجعوا فهؤلاء كفار مرتدون عن الإسلام وإن زعموا أنهم مسلمون، وإن اجتهدوا في الدعوة إليه على عقيدتهم وطريقتهم؛ كجماعة القاديانية الأحمدية الذين أنكروا ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم وزعموا

أن غلام أحمد القادياني نبي الله ورسوله، أو أنه المسيح عيسى ابن مريم، أو تقمصت روح محمد أو عيسى بدنه فكان بمنزلته في النبوة والرسالة .

سادساً: لأهل السنة والجماعة أصول ثابتة بالأدلة بينون عليها الفروع، ويرجعون إليها في الاستدلال على المسائل الجزئية وفي تطبيق الأحكام على أنفسهم وعلى غيرهم.

ومنها: أن الإيمان قول وعمل وعقيدة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما زاد المسلم في الطاعة زاد إيمانه وكلما فرط فيها أو ارتكب معصية بحيث لا ينتهي به ذلك إلى الكفر الصريح نقص إيمانه، فالإيمان عندهم درجات والفرقة الناجية طبقات متفاوتة بعضها فوق بعض حسب الأدلة وما كسبوا من الأقوال والأفعال .

ومنها: أنهم لا يكفرون أحدًا معينًا أو طائفة معينة من أهل القبلة ويخرجون من ذلك؛ لإنكار النبي صلى الله عليه وسلم- على أسامة بن زيد بن حارثة قتله رجلاً من الكفار بعد أن قال: لا إله إلا الله، ولم يقبل من أسامة اعتذاره عن قتله بأنه قالها متعودًا ليحرز بها نفسه. بل قال له: **«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»** يعني: أقالها خالصًا من قلبه أم لا .

إلا إذا أتى بما هو كفر واضح، كإنكاره لمعلوم من الدين بالضرورة أو مخالفة لإجماع قاطع وتأويله لنصوص صريحة لا تقبل التأويل ثم لم يرجع عن ذلك بعد البيان .

وقد لزم إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله طريقة أهل السنة والجماعة وسار على أصولهم، فلم يكفر أحدًا معينًا ولا طائفة معينة من أهل القبلة بمعصية أو تأويل أو بدعة إلا إذا قام الدليل على الكفر بذلك، وثبت البلاغ والبيان، ولم تختلف الحكومة السعودية - رعاها الله وأيدها بتوفيقه - عن ذلك في معاملتها لرعيتهما وحكمها فيهم، ولا في موقفها من المسلمين في الدول وخاصة من يفد إلى بيت الله الحرام لأداء نسك الحج أو العمرة فهي تحسن الظن بالمسلمين وتعتبرهم إخوانًا لها في الدين وتتعاون معهم على ما يشد أزرها ويحفظ حقهم ويرد إليهم ما سلب منهم، وترحب بمن يفد إليها وتقوم بما يسهل عليهم أداء نسكهم أو مهمتهم خير قيام بعطف وحنان، يعرف ذلك من خبر أحوالها ووقف على شؤونها وما تبذله من جهود وأموال في سبيل الإصلاح العام للمسلمين وتوفير الراحة لحجاج بيت الله الحرام .

ولهذا تسمح لطوائف المسلمين المختلفة بزيارة بيت الله الحرام دون التنقيب عما خفي من عقائدهم عملاً بالظاهر دون التنقيب عما في البواطن، والله يتولى السرائر، فإذا وضح لها كفر شخص أو طائفة معينة كالقاديانية مثلاً وثبت ذلك لدى العلماء المحققين من الدول الإسلامية فلا يسعها إلا أن تمنع من ثبت كفره وردته من أداء الحج والعمرة؛ حمايةً لبيت الله الحرام أن يقربه من في قلبه رجس، وعملاً بقوله تعالى (يا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) وقوله تعالى (وَطَهَّرَ
بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

ومما تقدم يتبين وجه أهمية المسألة العظيمة التي أشار إليها إمام الدعوة في عصره الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجاء طلب بيانه في السؤال، كما يتضح أنه رحمه الله سار على النهج السليم حيث لزم أصول أهل السنة والجماعة ، وإن الحكومة السعودية في معاملتها للمسلمين في العالم لم تحد عن الجادة، بل التزمت أصول أهل السنة والجماعة أيضاً كما لزمها إمام الدعوة، فأخذت المسلمين بظواهرهم ولم تنقب عن قلوبهم، فتسامحت مع من خفي أمره وقست على من كشف عن جريمته، وأصر على رده بعد المناظرات المتتالية والبيان المتتابع .

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم». ¹⁵ قال الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله تعالى وأمد في عمره- : «والدين متكامل لا نحتاج إلى آراء وأفكار من أي جهة من الجهات، أو من أي جماعة من الجماعات؛ فالدين كامل في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي فقه هؤلاء الأسلاف الكرام الذين فهموا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الفهم عقيدة وعبادة.» ثم أرفد حفظه الله في إشارة إلى حديث : **«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس.»** : «فلنعرض على هذا المنهج السلفي الذي ذكرناه لكم؛ فإنه هو الحق، وهو منهج الطائفة المنصورة التي أخبر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أنها على الحق وأنها لا تزال على هذا الحق، وأنه منهج الفرقة الناجية -وهي الطائفة المنصورة- التي نوه بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حينما تحدث بافتراق الأمة، وصدق الله هذا الخبر، واقتربت الأمة وبقيت هذه الطائفة أهل الحديث الذين شهد لهم حتى أهل البدع بعد أهل السنة أنهم هم أهل الحق، وأنهم هم الطائفة المنصورة وأنهم الفرقة الناجية، والتي احتذى حذوها ابن تيمية وابن عبد الوهاب رضوان الله عليهم.

أننا لننعم في ضلال هذه الدعوة المباركة ونستضيء بأنوارها لا في هذا البلد بل في العالم، ولو لا العوائق التي تعوقها من أعداء الله ومن أهل البدع والضلال لرأيتم العالم الإسلامي الآن مضيئاً بهذه الدعوة المباركة؛ فانها بدأت تنتشر وتكتسح العالم فتأمر أهل البدع وأهل الكفر في وقف هذا المد وهذا التيار القوي، ففعلوا الأفاعيل في إيقاف هذه الدعوة؛ فعليكم أن تدركوا هذا المؤامرات وهذه المكائد لهذه الدعوة التي لا

¹⁵ صفحة موقع اللجنة الدائمة على الأنترنت:

يمكن أن ينام عن مدها وامتدادها وامتداد أنوارها، لا يمكن أن ينام أهل البدع وأهل الضلال، سواء تمثل هذا الابتداع وهذا الضلال في الكفر أو التحزب أو في التصوف أو في الرفض أو في غيره من الضلالات. فانه لا يمكن أن تقر أعينهم، ولا يمكن أن يهدأ لهم بال وهذه الدعوة الإسلامية السلفية الحق تنتشر في الأرض؛ فكادوا لها المكائد.

فانتبهوا أيها الشباب، واعتصموا بحبل الله جميعا كما أمركم الله، وإياكم والتفرق فاقطعوا دابر هذا التفرق واستأصلوا شأفة كل أسبابه، سواء كان هوى أو تعصبا أو أي شيء...»¹⁶
وصلى الله وسلم على نبيينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

¹⁶ رسالة الشيخ العلامة ربيع المدخلي -حفظه الله تعالى- «التمسك بالمنهج السلفي»، ص. 7-9. طبع دار ميراث الأنبياء. ورسالة الشيخ -حفظه الله- مترجمة إلى اللغة الفرنسية بقلم الكاتب بعنوان *Tenir fermement à la Voie salafie* ومتوفرة في منتدى التصفية والتربية: <http://www.tasfiatarbia.org/vb/showthread.php?t=20250>